الفصل الرابع عشر

الصدام بين رجال الدين ورجال الفكر

الصدام بين رجال الدين ورجال الفكر

الأصل أنه لا تعارض بين الدين والعقل، وكيف تتعارض الأديان مع العقول والذي خلقها هو من أرسل رسله بالوحي إلى الناس، بل الدين يحث على الفكر والتفكر والتدبر والتعقل والبحث العلمي، ولكن خطيئة بعض رجال الدين وسلوكهم السلبي تجاه النص الرباني أوجد فجوة بينهم وبين رجال الفكر خاصة في أوروبا التي انحازت إلى اللادينية مخرجًا من عصورهم الوسطى السوداء، أما الوحي بمضمونه الصحيح وبوصفه المصدر الوحيد لمعرفة الغيبيات التي يطلق عليها الفلاسفة (ما وراء الطبيعة أو الميتافيزيقيا)، فإنه في حاجة إلى من يبلغه، ويفسره للناس بصورة صحيحة، ويتحمل رجال الدين في كل عصر المسؤولية الكبرى التي توجب عليهم البيان بتجرد وإخلاص، بحيث يبذلون قصارى جهدهم لتبيينه للناس كما نزل وليس كما يفهمونه أو كما يشتهون.

وعند استقراء حالات تطرف وتشدد الكثير من الفلاسفة في أوروبا نجد أن السبب الرئيس وراء ذلك راجع إلى طريقة تعامل رجال الدين مع المجتمع عامة، ومع الفلاسفة على وجه الخصوص؛ لأنهم يتقدمون من يخرق المألوف، فإذا قام رجال الدين بتمثيل الدين تمثيلًا مخالفًا لما نزل به فإنه من البدهيّ أن يصطدموا بعقول أمثال أولئك الفلاسفة المتحررة من قيود التبعية والتقليد الأعمى القريبة من الفطرة التي لا تتعارض مع العقول السليمة، فيترتب على ذلك نشوء (ملكة) تطرف طارئة عند المفكر أو الفيلسوف كرد فعل مباشر للوصاية الكنسية على شؤون الحياة بالباطل، ومن ثم يلمع نجم الفيلسوف المنسجم مع نفسه وفكره ومع من حوله من البشر، ويحظى بالقبول عند الناس أكثر من رجل الدين الملبس الحق بالباطل في نظرهم وهو يعلم ذلك، وهذا أمر طبيعي.

*****

المواجهة مع الأحبار والرهبان

لقد كان التطرف عند النصارى الكاثوليك خاصة سببًا في انقسام الديانة النصرانية نفسها، وظهور طائفة البروتستنتية على يد (مارتن لوثر)، الذي قامت حركته على أساس أن ملكة المعرفة في الاعتقاد هي الإيمان، وملكة المعرفة في الفلسفة هي العقل، وأن ميدان العقل هو المحسوس، أما ميدان اللاهوت والحقائق الغيبية السرمدية الروحية فلا تدرك إلا بالوحي من الله والإيمان به[1]. والبروتستنية طائفة تشكل اليوم ما يزيد على ثلث عدد النصارى في العالم، ومراحل نشوء البروتستانتية لها دلالات فكرية تعكس مرحلة الانسداد الفكري والمعرفي الذي تبنته الكنيسة الكاثوليكية منذ القدم، لقد بدأ (لوثر) حركته العلمية التمردية على الكاثوليكية الجامدة عندما وصل إلى روما عام ١٥١١م، فوجد (البابا) يبيع صكوك الغفران على الناس لينفق على الكنيسة، فثارت ثائرة (لوثر) وأصدر بيانًا من خمسة وعشرين اعتراضًا ضد صكوك الغفران، وعلقه على باب كنيسة (فتنبرج) عام ١٥١٧م، فتصدى له الراهب الكاثوليكي (تتسل) وأصدر بيانًا مضادًّا لبيان (لوثر)، ثم قام بإحراق بيان لوثر علنًا، فانتقم الطلاب للوثر، وأحرقوا بيان (تتسل)، ثم تواصل السجال حتى وجه (لوثر) بيانه الشهير إلى النبلاء المسيحيين في ألمانيا عام ١٥٣٩م، وبعد ذلك كتب رسالته الحادة جدًّا في الكنيسة الكاثوليكية التي نص فيها على (أن بابوية روما أسسها الشيطان)، وانطلقت البروتستانتية عالميًّا منذ تلك الحادثة إلى يومنا هذا[2].

لقد كان من الطبيعي أن يحدث ذلك بعد أن بلغ بالمتشددين الكاثوليك الأمر أن حولوا الدين إلى أداة قهر وتعذيب وقتل لكل من يقف أمام مكتسباتهم الذاتية بعيدًا عن الدين، وأي إنسان يفكر مجرد التفكير في التحرر من قيود الكنيسة الحديدية يكون مصيره المحاكمات والإعدام باسم الرب، لقد كان الكثير من سلوكيات القساوسة محل تندر وازدراء من عقلاء المجتمع، وقد كان (فولتير) من أشهر من وقفوا بشجاعة في

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٣٦٦.

(٢) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٣٦٤.

وجه الكنيسة المتسلطة، وحدثت له صولات وجولات معها، لا تخلو من طرافة أحيانًا، يروي (فولتير) أن هنديًّا جاء إلى فرنسا بصحبة المكتشفين، فدعته الكنسية إلى دينها، وأول مشكلة واجهته هي كيفية تحويله إلى الديانة النصرانية، وبعد أن أهداه أحد رؤساء الأديرة نسخة من (العهد الجديد)[1]، الذي آمن به الهندي، جاء ليقدم نفسه للتعميد والتطهير! حيث لم يجد في العهد الجديد شخصًا واحدًا لم يتطهر، ولما واجهته مشكلة الاعتراف بالذنب تساءل وفي أي مكان وردت عبارة التعميد والتطهير في الإنجيل؟ فأرشده القسيس إلى نص ورد في إنجيل (سينت جيمس) جاء فيه (اعترف بخطاياك إلى الآخرين)، وبعد أن انتهى الهندي من الاعتراف، أمسك القسيس من تلابيبه، وسحبه بقوة، وأجلسه على كرسي الاعتراف، وطلب منه الاعتراف بدوره قائلًا: يا صديقي، لقد قيل: إنه يجب أن يعترف بعضنا بذنوبه إلى بعضنا الآخر، فقد اعترفت إليك بذنوبي، فلن تخرج من هنا حتى تعترف لي بذنوبك[2].

لقد كان (فولتير) من أشد المحاربين للتعصب الديني في فرنسا، وكان يوفر لضحاياهم الملاجئ المناسبة ويؤويهم، ويحميهم من الاضطهاد الكنسي، وقد كان يقول: إن الفيلسوف لا يتعصب، ولا ينصب نفسه نبيًّا، ومن أشهر عباراته: «لا أضع في مرتبة الفلاسفة أمثال (زرادشت)، ولا (هرمس)، ولا (أرمينوس القديم)، ولا غيرهم من المشرعين الذين تفتخر به أمم لمجرد أنهم قالوا عن أنفسهم: إنهم أبناء الآلهة! إنما كانوا آباء في الخداع مستخدمين الكذب من أجل تعلم حقائق، إنهم لم يكونوا فلاسفة، بل كانوا كذابين ذوي فطنة»[3].

---

(١) الكتب المقدسة عند أهل الكتاب في أصلها إما عهدًا قديماً أو عهدًا جديدًا فالقديم (Old Testament) هو بحسب اعتقادهم أنه كل ما أوحى الله به إلى أنبيائه قبل عيسى عليه السلام وفيه أخبار آدم ونوح وإبراهيم وبشارة عيسى عليهم السلام أما العهد الجديد (New Testament) فيعتقدون أنه مكمل للعهد القديم وفيه الحديث عن عيسى وحياته وأعماله وتعاليم النصرانية وقد ألهم الله كتبَتِه من بعده ليكتبوه على لسانه (هكذا يقولون!). وقد أطلق أحمد ديدات رحمه الله على رسالة الإسلام الخاتمة أنها العهد الأخير (Last Testament) ليخاطب أهل الكتاب بلسانهم؛ طمعًا في دعوتهم إلى الحق.

(٢) قصة الفلسفة، ديورانت، (مرجع سابق)، ص٢٦٢.

(٣) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٢٠٢- ٢٠٣.

لم يكن (فولتير) سوى إنسان طبيعي جدًّا استقل عن وصاية الكنيسه، ففعّل عقله بوصفه إنسانًا متوازنًا لا يقبل الوصاية البشرية من أحد، فطارت شهرته في الآفاق على الرغم من أنه مجرد أديب ذي نزعة دينية معتدلة، ولو فتشت في تاريخه لوجدت أن خصومه وصفوه بأبشع ما يمكن أن يوصف به مخالف؛ لأنه يرفض العقائد المسيحية الرئيسة: التثليث، وألوهية المسيح، والتجسد، واشتدت خصومته مع رجال الدين في آخر خمس عشرة سنة من حياته، إذ وجد من رجال الدين عائقًا أمام كل فكرة إصلاحية لتحرير الإنسان أو التسامح، ومن حينها جعل شعاره (اسحقوا الخسيس)، وكان يختم بها مراسلاته، ولما اشتد به المرض زاره قسيس مدعيًا أن الله أرسله ليسمع اعترافه، فطلب منه فولتير تقديم أوراق اعتماده من الله! فرجع القسيس خائبًا! وعندما اقترب أجل فولتير رفض رجال الدين كتابة وصيته ما لم يوقع على الاعتراف والإيمان بالمذهب الكاثوليكي، فتحداهم أن كتب وصيته بنفسه قائلًا: «أموت على عبادة الله، ومحبة أصدقائي وكراهية أعدائي ومقتي للخرافات والأساطير الدخيلة على الدين»[1].

هذه المعركة الشرسة بين أديب ومفكر فرنسي مشهور بحجم فولتير، وبين رجال الدين لا تعني أن فولتير كان ملحدًا أو محاربًا للدين كما يزعم بعض مروجي الإلحاد عنه، بل كان يؤمن بإله الكون الحق، ويكفر بما كان يقدمه اليهود والنصارى في عصره من خرافات يستغفلون بها عامة الناس، ويزعمون أنها من الدين، لكن تطرف خصومه وفجورهم بالخصومة معه نتج عنها ردود أفعال أثارت حوله بعض الانطباعات الحادة المبنية على تشددهم ضده.

ولم يكن (فولتير) وحده الذي واجه سلبيات رجال الدين، فقد كانوا أشد قسوة على العالم الفلكي (جوردا نويرونو)[2]، بعد أن صرح بأن الكون لا متناهي، وأن الحياة لا متناهية، وأن المكان لا متناهي، والزمان لا متناهي، حكم عليه ديوان

(١) قصة الفلسفة، ديورانت، (مرجع سابق)، ص٣١٢.

(٢) جيوردانو بورنو Giordano Bruno فيلسوف ومفكر إيطالي ولد في نابولي عام ١٥٤٨م (٩٥٥هـ) وأحرق حيًّا في روما عام ١٦٠٠م (١٠٠٨هـ) بعد ثماني سنوات من السجن تحت وطأة التعذيب في محكمة التفتيش في روما لجهره بمعتقداته المخالفة للكنسية حول التجسيد والثالوث والكون والوجود والذرة: (معجم الفلاسفة طرابيشي ص١٧٤.

التفتيش بالإعدام، فأعدم في ساحة الأزهار عام ١٦٠٠م، حيث يوجد تمثاله إلى يومنا هذا، وذلك بعد أن قاد (ديكارت) حملة اعتراض ورد اعتبار له بعد مدة طويلة من إعدامه، وأثبت أنه أعدم ظلمًا، مؤكدًا أن القول: إن الكون لا متناهي يعني أن قدرة الله لا متناهيه، وهذا تمجيد لله[١].

والحادثة تتكرر أيضًا مع الفيلسوف الألماني (كانت) الذي هو الآخر لم يسلم من تطرف رجال الدين، فقد ثاروا عليه في ألمانيا بسبب إعلانه المدوي بأن العقل النظري لا يمكنه إثبات البرهان على صحة الدين، فما كان منهم إلا أن حاربوه، وضيقوا عليه، ووصل بهم الأمر إلى أن أطلقوا اسم (كانت) على كلابهم انتقامًا منه واحتقارًا له. وبسبب مثل هذه التصرفات الحادة من بعض رجال الدين أصبح عند الفيلسوف الألماني (نيتشه) حدة ونقمة غير مسبوقة ضدهم، فكان لا يقبل منهم عدلًا ولا صرفًا، ولا يطيق منهم شيئًا، وكانت عبارته الشهيرة (لقد مات الإله) رد فعل مباشر على تطرفهم وحدتهم، ولما اشتد به المرض عام ١٨٧٩م وأوشك على الموت أخذ العهد على أخيه وأخته ألا يقف على جثمانه إلا الأصدقاء، وألا يدخل الفضوليون من الناس عليه، وألا يدعو قسيسًا ينطق بالأباطيل والأكاذيب على قبره في وقت لا يستطيع هو الدفاع عن نفسه[٢].

ومن الواقفين بقوة ضد التطرف الديني الفيلسوف (برتراند رسل)، المتهم بالإلحاد أيضًا من قبل خصومه المتطرفين ضده، الذين كانوا سببًا فيما وصل إليه من حدة وإنكار للأديان، ومما واجهه منهم أنه عندما عين أستاذًا في كلية الحقوق في جامعة نيويورك، ثار عليه رجال الدين، ودافعو الضرائب باحتجاجات مطالبين بفصله لأنه عدو الدين والأخلاق، فرضخت الجامعة لمطلبهم وفصلته فصلًا تعسفيًا، وأتبعت ذلك حكمًا عليه بأنه لا يصلح للتدريس، ما أوجد عنده كراهية شديدة للدين ولرجال الدين، وانعكس ذلك على حياته وسلوكه، فأصبح متقلبًا من حال إلى حال مما يشبه التناقض أحيانًا،

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٣٥٢.
(٢) قصة الفلسفة، ديورنت، (مرجع سابق)، ص٥١٧.

فقد بدأ حياته داعية سلام عندما هاجم الفاشية بقوة عام ١٩٣٦م، ثم تحول إلى مؤيد للحرب بشدة، فطالب بضرب الاتحاد السوفيتي بالقنبلة النووية، ثم ما لبث أن عاد داعية سلام مرة أخرى عام ١٩٤٩م[١].

لقد كانت الماركسية نفسها ردة فعل للتطرف الديني في حينه، ولن تنسى الإنسانية ذلك الثمن الباهظ لوجود الفكر الماركسي، حيث اتخذ من الدين عدوًّا راح ضحيته أكثر من تسعين مليون قتيل من البشر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر وحده على يد الشيوعيين، منهم خمسة وثمانون مليونًا في روسيا والصين فقط، هذا علاوة على ضحايا التعذيب والسجون والتهجير القسري الذي مارسه الماركسيون ضد الشعوب البريئة بقصد إجبارهم على هذا المعتقد الفاسد والمتصادم مع الفطرة وتطبيقه على الناس بالقوة، في واحدة من أكبر الكوارث في تاريخ البشرية، وعلى الرغم من فنائها وانقراض أفكارهما من بعدهما إلا أن التاريخ قد سجل أن أفكار كارل ماركس ولينين المتطرفة، كانت أسوأ التجارب الفكرية كلفة في التاريخ البشري على الإطلاق[٢].

والحديث عن التطرف المضاد للتطرف الديني عند النصارى يطول، ولكنه يؤكد أن الأفكار الحادة المتطرفة للكثير من الفلاسفة والمفكرين، الذين صُنفوا بسببها تصنيفات حادة أيضًا، مرتبطة بقوة بظروف نشأة كل منهم والمعاناة التي مر بها ومحاولاتهم كسر احتكار رجال الدين للفكر والسلطة باسم الدين المقدس، بحيث تنعكس على شخصية الفيلسوف ما يمر به من مشكلات فكرًا وسلوكًا، ما يوجب التريث عندما نسمع عن أحد موقفًا حادًّا من خصومه، لربما انتصر طرف في حينه على خصمه، فطمس أدلة براءة الطرف الثاني وظلمه، ولا يسع الباحثين تجاهل البيئة التي نشأ فيها كل فيلسوف، إذ إنها جزء مهم في صناعة وفهم أفكاره وتقييم مواقفه والحكم عليه.

*****

(١) موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٥١٨- ٥١٩.
(٢) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص٣٠.

التطرف نتيجة للتطرف

حيثما وجد التطرف وجدت الصراعات الفكرية بين أقطاب المجتمع، ولم تسلم منه مجتمعاتنا الإسلامية على الرغم من وجود القرآن بين يدينا، ولولا أن التطرف آفة لما جاءت النصوص القرآنية والنبوية بخطاب وسطي يحذر من الإفراط أشد مما يحذر من التفريط، بل ويذكر المسلمين بما كان من أهل الكتاب من قبلهم من مواقف متطرفة كانت وبالًا عليهم وعلى الإنسانية، قال تعالى عنهم: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧] وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧] ومع هذا التذكير فلم يكن تاريخ المسلمين محصنًا عن بعض مظاهر التطرف التي جدفت بالأمة يمينًا وشمالًا، وكلما وجد المتطرفون في مرحلة تاريخية، أفرزت تلك المرحلة عجائب وغرائب فكرية واعتقادية تصبح فيما بعد عبئًا على الموروث الديني الإسلامي، ويأتي في مقدمة تلك العجائب الاستبداد والإقصاء والوصاية وحرية التصنيف التي يمارسها بعض الأطراف ضد الآخر ونسبة ذلك للدين، وهذه من أهم العوامل المنبتة لمظاهر الإلحاد والصدود عن الدين لاصطدامها مع الفطرة السوية وكرامة الإنسان.

ومن الإنصاف ألا نساوي الصراع داخل الأمة الإسلامية مع مفكريها بما حدث مع أهل الكتاب من قبلهم، فهناك فرق كبير بين أديان ترهلت، وحرفت كتبها المقدسة، واستوجب الأمر أن يأتي دين خاتم يفتح للبشرية آفاقًا قد أغلقها الأوائل، فينسخها، ويجعل الدين عند الله الإسلام، وهذا لا يعني خلو ساحة المسلمين من أزمات تطرف وسقوط ضحايا بسببها، ولم يجتمع التطرف الحاد وردّ فعله القوي جدًّا في صورة بشعة جدًّا في شخص واحد كاجتماعهما في شخصية الملحد المشهور (عبدالله القصيمي)[1]،

(١) عبدالله القصيمي (١٩٠٧- ١٩٩٦م) الموافق (١٣٢٥-١٤١٧هـ) مفكر سعودي منحرف جدًّا من أكثر الشخصيات العربية إثارة للجدل حيث انقلب من موقع المناصر بقوة للدين من أقوى درجات المحافظة إلى أن بلغ بالإلحاد حدًّا لا يكاد يبلغه أحد من قبله ومات على ذلك نسأل الله الثبات على الحق ونعوذ بالله من سوء الخاتمة.

الذي نشأ في قلب بيئة محافظة جدًّا، وبدأ حياته العملية متطرفًا متشددًا، انتهى به الأمر متطرفًا متشددًا، ولكن في الاتجاه الآخر، إذ لم يتجرأ إنس ولا جان على ذات الله كما تجرأ وتكلم القصيمي، فعاش شقيًّا كئيبًا طريدًا في حياة بؤس وعناء ويأس وانعدام للبسمة والسعادة، قل أن تجتمع هذه الطوام في شخص تجاوز الثمانين تائهًا على وجهه، ومات في التسعين من عمره على ذلك شريدًا طريدًا في القاهرة، ويحرص الملحدون المعجبون بفكر القصيمي على إخفاء الحقائق السلبية المذهلة عن شخصيته؛ خوفًا من انكشاف سبب إلحاده، فلا يذكرون مثلًا أنه كان في تركيبته النفسية شكاكًا في كل شيء، حساسًا من كل شيء، قاسي الطبع متمردًا على كل مألوف، حزينًا بائسًا، لا تكاد ترى منه ابتسامة، ولا يتوقع منه الترويح عن أحد بطرفة مسلية، إنه في عالم جحيمي آخر، يشتم ويلعن، محطم يحطم، يتمرغ في الإحباط، ويمرغ غيره فيه، لقد كان متكبرًا مغرورًا إلى درجة أنه مدح نفسه بقصيدة جاء فيها:

وَلَو أنَّ ما عِنْدِي مِنَ الْعِلْمِ والفَضْلِ يُقَسَّمُ فِي الآفاقِ أغنَى عنِ الرُّسْلِ[1]

وبلغ به الغرور أن كتب على أحد كتبه هذه العبارة: «سيقول مؤرخو الفكر: إنه بهذا الكتاب بدأت الأمم العربية تتبصر طريق العقل»[2]، وحتى يدرك المغترون بشخصيته سبب انحرافه وإلحاده أحيلهم إلى كلامه عن نفسه، ولا أصدق من إقرار الإنسان على نفسه مختارًا، حيث يقول: «تحولت؛ لأني عندما بدأت أراجع نفسي وعقيدتي بميزان العقل، وجدت من المشايخ كل هجوم وتعنيف وازدراء بدلًا من النصح والتوجيه»، وهذا اعتراف منه بأن العناد كان الدافع الأساسي لإلحاده[3].

ومن أضل ممن يرى رجلًا مضطربًا بهذه الدرجة، غارقًا في العقد النفسية والفكرية، ثم يرهن به عقول الأمة المتوازنة الطيبة الزكية؟! ويلبس الحقيقة على شبابنا وشاباتنا

(١) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص١٣٠.
(٢) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص١٣٠.
(٣) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص١٣٢.

الأطهار؛ لإيهامهم بأن وراء هذا المريض المبتلى قضية تستحق التأمل، وبأي معيار يلمع ويسوق القصيمي ليشوش به على شباب أبرياء، ولدوا على الفطرة والنقاء، لا يدركون زيف إطلاق صفة (مفكر) على مثل القصيمي، ولا أدري بماذا يعجبون من رجل لم يجامله في ضلاله ولا حتى المفكر النصراني المنصف (ميخائيل نعيمة) الذي خاطبه مغاضبًا من شخصيته المظلمة، فقال: «إن قلمك ليقطر ألمًا ومرارة وحقدًا واشمئزازًا، ولو كان لمثل حقدك أن يصنع منه قنبلة لكانت أشد من قنبلة هيروشيا النووية»[1].

من جهة أخرى يُعدّ الإعجاب المطلق والهيمان المندفع وراء العالم أو المفكر تعصبًا مرفوضًا وغلوًّا محرمًا أيضًا، فلا معصوم إلا المعصوم ﷺ، وجميع من هم دونه يؤخذ من كلامهم ويُردّ، وكم دفع الملسمون ثمن الخلط بين التقدير الواجب والتقديس المحرم لذوات الأشخاص، التي على إثرها التبس عليهم تلك المواقف التي يتخذها علماؤهم أهي من دين الله أم أنها مجرد رأي عالم أو فئة أو طائفة أو مدرسة، ليس من المنطق السليم أن يصبح العالم وحده مرجعًا شاملًا عند عامة الناس وفي كل شأن سواء أكان دينيًّا أم دنيويًّا، فيما يعلم وما لا يعلم، بمجرد أنه تصدر في فن من فنون العلم، ولماذا هذه الحدة من مريدي الشيخ وأتباعه على من يستدرك عليه شيئًا بالبرهان والدليل؟! لعلك تلاحظ كثرة ورود عبارة قال فلان من الأئمة أو المفسرين أو الفقهاء السابقين لإسكات مفكرين معاصرين لربما تجاوزا أولئك الأئمة في عصرهم علمًا ومعرفة، لما يحظى به مفكر اليوم من وسائل معرفية تمكنه من أضعاف أضعاف ما كان متاحًا لعالم في القرن الثالث الهجري مثلًا من طرق البحث والدراسات، وبعض الغلاة يضفون على بعض المعاصرين المقلدين التقليدين قداسة مبالغًا فيها؛ لعدم قدرتهم على مجاراة من سبر غور العلم، وغاص في أعماقه، مستخدمًا الوسائل المعاصرة، فترى أتباع أولئك التقليديين يثورون انتصارًا لعالمهم الذي نطق برأي شخصي غير مدعم بدليل، حتى

(١) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص١٣٢.

إذا ما ناقشته فيه علميًّا وموضوعيًّا، رماك أتباعه بسهامهم المسمومة دونه: أتستدرك على الإمام العلامة الجهبذ إمام زمانه ومجدد عصره ونور الله في أرضه؟ ومن أنت حتى تفعل ذلك؟! بينما رسول الله ﷺ قال رأيه البشري في توبير النخل، فلما لم تصلح برأيه انسحب معلنًا بأنه ليس بأعلم من الناس في تدبير دنياهم[1]، وكان يستشير أصحابه في نوازل وأمور كبرى، وهذا التوسط في منهجه والتواضع ولين الجانب هو ما يدعو إليه القرآن أمة الإسلام قاطبة في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] وما يتلمسه أيضًا كل مسلم باستفتاحه ركعات الصلوات يوميًّا بقوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦].

*****

(١) الحديث رقم (٢٣٦٣) في صحيح مسلم ورواه ابن ماجه وأبويعلى وابن حزم وابن خزيمة والطحاوي وغيرهم عن عائشة ﵂ أَنّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ أَصْوَاتًا فَقَالَ: «مَا هَذِهِ الأَصْوَاتُ؟» قَالُوا: النَّخْلُ يَأْبُرُونَهُ فَقَالَ: «لَوْ لَمْ يَفْعَلُوا لَصَلُحَ ذَلِكَ» فَأَمْسَكُوا فَلَمْ يَأْبُرُوا عَامَّتَهُ فَصَارَ شِيصًا فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «كَانَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ فَشَأْنُكُمْ وَكَانَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ فَإِلَيَّ» وفي لفظ مسلم «فقال: مَا لِنَخْلِكُمْ؟ قَالُوا: قُلْتَ: كَذَا وَكَذَا قَالَ: أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ».